﴿ الاصلاح اللامركزي وطلابه في البلاد العربية ﴾

تألف حزب اللامركزية بمصر لمطالبة الدولة بتغيير شكل ادارتها في المملكة كلها - وان كان جميع مؤسسيه من العرب السوريين - لأنهم يريدون الحياة للدولة كلها لا لبلادهم فقط ، ولو طلبوا الادارة اللامركزية لبلادهم وحدها لما كان ذلك أنفع لهم ولا أرجى لقبول طلبهم ، اذ رضاء الدولة بجعل ادارة بعض ولاياتها مركزية وبعضها غير مركزية بعيد عن العقل والتصور . وتألفت في أثناء ذلك الجمعية الاصلاحية ببيروت لطلب اصلاح معين لولاية بيروت خاصة . وتألفها جمعية في البصرة لطلب الاصلاح لولاية البصرة خاصة . وما حفز العرب في هذه المواضع واهاب بهم الى طلب الاصلاح والدولة بتلك من أشغال الحرب البلقانية التي غلبت فيها على امرها ، الا لخوفهم أن يكون بقاء الخلل السابق سببا لاختلال الدولة وتقسيم الدول لها بالفتح السلمي الاقتصادي او الاحتلال العسكري .

ولما رفعت هذه الجمعيات اصواتها بطلب الاصلاح رددت صداه جماعات المهاجرين السوريين في امريكة الشمالية والجنوبية وفي أوربة ، واقترح بعض من في باريس منهم تأليف مؤتمر عربي بباريس لاعلان مقاومة كل احتلال اجنبي في البلاد وللبحث في حقوق العرب في الدولة العثمانية والمطالبة بها . وعهدوا الى حزب اللامركزية ادارة هذا المؤتمر ، فاختار الحزب للقيام بذلك كلا من السيد عبد الحميد الزهراوي واسكندر بك عمون ورشح الاول لرياسة المؤتمر على ان يكون باتخاب اعضاء المؤتمر ، وكذلك كان . وكان من امر انعقاد المؤتمر وغيابه واهتمام حكومة الاستانة به ما هو مشهور .

شعر أركان الحكومة الاتحادية بوجود العرب وعنوا بمبادلة الاحتفالات بينهم وبين من في الاستانة من العرب واكثرهم طلبة المدارس الاميرية . وسعوا لاستقدام الوفود من سورية ، واحتفلوا واحتفوا بمن ذهب منهم الى الاستانة ، وادبوا لهم المآدب ، واحبوا التأليف بين طلاب الاصلاح ومن عارضهم وشنع عليهم تزلفاً للحكومة ، ولكن لم يتم لهم هذا . وكانت هذه المظاهرات التي اهتم بها اهل الاستانة تذكر بالسخرية في غيرها ، ويعدها العرب في مصر وسورية والعراق وفي البلاد الاجنبية خداعا وتحذيرا .

وأما الامر الذي كان محل النظر ، وموضع الامل عند بعض العرب ، فهو

الاتفاق الذي عقدته جمعية الاتحاد والترقي مع رئيس المؤتمر العربي ، واعطته العهد والميثاق لتنفذنه كله . وهو مؤلف من اثنتي عشرة مادة . ولهذا مكث رئيس المؤتمر بضعة اشهر في باريس ينتظر تنفيذه ، وكانت الاستانة تجذبه اليها وحزب اللامركزية يجذبه عنها ، حتى اختار الحزب أخيرا أن يعود الى مصر ، وان يمر بالاستانة مختبرا اذا شاء . فشاء وجاء الاستانة ، وراجع رجال الحكومة في أمر تنفيذ الاصلاح الموعود به ، فقالوا إننا على عهدنا ، وقد بدأنا من التنفيذ بانشاء مدرستين سلطانيتين باللغة العربية احداهما في دمشق والاخرى في بيروت ، وبتقرير جعل عسكر كل ولاية في منطقتها العسكرية ، وبجعل اللغة العربية رسمية في المحاكم ودواوين الولايات العربية ، وباختيار الموظفين لهذه الولايات من العارفين باللغة العربية . واما ما يتعلق بالنافعة والاوقاف والمعارف فهو يتوقف على وضع القوانين له ونحن شارعون في ذلك بتنقيح قانون الولايات ووضع قوانين أخرى ، ثم ان تنفيذ بعض ذلك يتوقف على وجود المال ولا مال الآن . واما المناصب والوظائف في مجلس الاعيان ومصالح الحكومة العليا فهم ساعدنا على اختيار الاكفاء لها لتعينهم بالتدريج .

هذا ملخص ما تذكره من معنى أجوبة الحكومة للسيد الزهراوي بعد مراجعات متعددة ، ووعود مبهمة ، كان فيها بين اليأس والرجاء مدة طويلة ، حتى عزم على مغادرة الاستانة . ثم شرعت الحكومة في تنفيذ مالا يتوقف على القوانين ولا ينال من المطالب بالمشاورة معه ، ومنها تعيين ستة اعضاء من العرب في مجلس الاعيان احدهم السيد الزهراوي نفسه ، إذ اقتضت الحال ان يكون في الاستانة مرافبا لتنفيذ سائر ما وعدت به الحكومة من الاصلاح ، ومنها تعيين الشيخ اسماعيل الحافظ من علماء طرابلس الشام عضوا في مجلس المعارف الاعلى ، وهو في الذروة العليا من نابغي العرب علما وعملا واخلاقا وعقلا ورأيا واستقامة . ومنها تعيين عبد الوهاب افندي الانكليزي (لقبا لا نسبا) وشكري افندي العسلي مفتشين في بعض الولايات ، وهما من اشهر نابغي العرب من سلك الحكومة الملكي المستحقين للمناصب العالية . ومنها تعيين اناس آخرين في (الدوائر) العالية في العاصمة .

وكان رجال الاستانة قبل هذا قد أرضوا بعض رجال جمعية بيروت الاصلاحية بالوعود الجميلة فسكنت حركتها بالتدريج ، واستمالوا السيد طالب بك النقيب زعيم البصرة ، فأعان في الجرائد الرسمية عن الحكومة والاتفاق معها وتبرع للاسطول العثماني وجمع له مالا كثيرا

ثم ان حزب اللامركزية رأى من الصواب ان يحفظ صلته بالسيد الزهراوي كما حفظ هو صلته بالحزب بعد قيامه بما عهد اليه خير قيام . حتى انه لم يحل ولم يرحل ، ولم يحلّ ولم يعقد ، الا باستشارة الحزب ، ولان زعماء الحزب يثقون كل الثقة بصدقه في القول وباخلاصه في العمل لمصلحة الامة ، فهو بهذا خير من يوقفهم على أعمال حكومة العاصمة فيكونون على بصيرة منها ، فلا يبنون عملهم وسعيهم على الظنون والاوهام ، فقرر الحزب باتفاق الآراء إقرار السيد الزهراوي على قبول منصب الاعيان والثقة به ، اي في التوسط لدى الحكومة بمطالب الاصلاح . فعمل الحزب هذا وهو غير موقن ولا مرجح لانجاز الحكومة ما وعدت به السيد الزهراوي ، كما انه غير موقن بأنها لا تنجزها ، فكانت الحكمة في عدم قطع الصلة بالحكومة ، ومطالبتها بالبرهان والحجة ، على كون الحزب لا يألو جهدا في السعي الى الاصلاح من طريق الامة ، فهو يسلك الطريقين الى مقصده ، فاذا لم يصل من احدهما وصل من الآخر .

اتفق ان الحزب لم ينشر شيئا جديدا بعد بيانه العام الذي نشره يوم المظاهرة البرقية السلمية ، يطالب البلاد كلها للادارة اللامركزية ، لانه لم يتجدد شيء جديد يدعو الى النشر ، فظن البعداء عن مركز الحزب والذين ليس لهم صلة مكاتبة به ، ان الحزب قد سكن ، وسكت او انحل كجمعية بيروت وجمعية البصرة . وأنه رضي من الحكومة بما قالت وما فعلت ، وطفقت الجرائد العربية في أمريكة تطعن في الحزب وفي طلاب الاصلاح كافة ، وزعماء بيروت منهم خاصة .

***

يدخل الكلام بهذا الموضوع في اربع مسائل : الجماعات الاصلاحية ، والمشتغلون عليها الآن ، وما يعترضون به ، والحالة الحاضرة . ولنا في كل مسألة منها قول وحين .

اما الجماعات الاصلاحية ثلاث كما تقدم : جماعة حزب اللامركزية وهي تعمل للسلطة كلها وان كان المؤسسون فيها عربا وتأثير عملها الاول في البلاد العربية . وهي وجد الاصلاح في البلاد العربية يوجد في غيرها حتما اما سابقا واما لاحقا . وجماعة بيروت وجماعة البصرة ، ومطالب كل منهما موضعية ، ولكن زعماءها متفقون مع حزب اللامركزية في مطالبه العامة كلها ، اذ النسبة بينه وبينهما كالنسبة بين الخاص بالعام . واذا سكتت الجماعتان اليوم عن مطالبهما الخاصة لأسباب اقتضت ذلك ،

فذلك لاينفي بقاء اتفاق أهل الرأي منهما مع حزب اللامركزية في المطالب الاصلاحية العامة ، وان لم يساعده على ذلك جميع افرادهما في الشكل الاول ، فقد يساعده كثير منهم في شكل آخر . والحق الواقع ان الحزب الآن اقوى ناصرا واكثر عددا مما كان عليه من قبل ، خلافا لما يتوهمه البعيد عنه ، فقد تشعبت شعبه وكثرت فروعه في الولايات ، ورسخت مقاصده في النفوس ، وقد قويت الآمال فيه ، وانحصر رجاء الولايات في سعيه ، وان صلة السيد الزهراوي به لم تزد رجاء الولايات فيه الا قوة وثباتا ، وان كان أهل الرأي من شعبه ولجانه فيها متفقين مع اخوانهم الذين في سر على كون ما مقت به الحكومة على العرب لا يعد شيئا مذكورا في جانب مطالب الحزب ، ولا ينبغي ان يزيده الا جدا واجتهادا في السعي .

وأما المعترضون فمنهم المخاص الذي لا علم له بدخائل الامور وحقائقها ، ومنهم المخاص المطلع الذي يريد بالاعتراض حفز الهمم ، والحث على الاسراع في العمل ، ومنهم من لا حظ له من المطالبة بالاصلاح الا التلذذ بمقاومة الدولة العثمانية والتهويش عليها ، وهو لا يرجو لها ولا منها صلاحا ، ولا يحب لها بقاءا . فهو نصير المتألبين عليها ، وظهير المقاومين لها ، وعدو الراضين منها ، كيفما كانوا ، وبأية شكل ظهروا ، ومراده ان تستولي الدول الاوربية عليها ولا يرضيه ما دون هذا . ومنهم من لا يسهل معرفة قصده ولا حقيقة مراده . فاما فالمخلصون في طلب الاصلاح فلا يلبثون أن يرجعوا عن انكارهم ، وغير المخلصون لا علاج لهم .

وأغرب ما رأى الحزب من المعارضة والمقاومة وأبعده عن المعقول ما كان من احد كتاب نصارى السوريين الذين انضموا للحزب . فقد حضر كثيرا من جلسات اللجنة العليا بطريق الاستثناء ، كان يلقي فيها دلوه بين الدلاء ، فينفرد بالمعارضة ، ويلح بطلب حمل المصالح والمنافع قسمة بين المسلمين والنصارى ، وقد اتفق الفريقان على انكار هذا الرأي وضرر هذه القسمة ، وكونها تكون مثار النزاع والتخاصم والعداوة والبغضاء ، ويجزم أهل العلم والرأي من النصارى أن ضرر هذه القسمة عليهم اشد ، وان السكوت عن كل ما يتعلق بالدين والمذاهب خير لهم وانفع . ولكن هذا الكاتب الذي كان ينكر ذكر الدين في امور السياسة وشؤون الدنيا بث فكره هذا بالنشر في بعض جرائد مصر وأمريكة ، ونفر نصارى المهاجرين في أمريكة من الحزب ، ونهاهم عن مساعدته باسم المسيحية وحقوق المسيحيين وهضم المسلمين لها ، حتى انه كتب في جريدة الهدى الامريكية التي تعنى بنشر ما يكتبه ان صاحب المنار أنكى على مسلمي بيروت اتفاقهم مع نصارها على جعل نصف أعضاء المجالس المحلية

من المسلمين والنصف الآخر من غيرهم . وهي دعوى غير صحيحة ، فان المنار أنكر من لائحة جمعية بيروت الاصلاحية اكثر ما اعطته للمفتشين والمراقبين من الاجانب ولم ينكر مسألة المناصفه في المجالس بل عدها دليلا على اخلاص المسلمين وصدقهم الاتفاق مع النصارى لأنهم تنازلوا لهم عن بعض حقوقهم .

وأما الانتقاد والطعن الذي صوب اليهم فهو ان الترك ارضوهم ببعض المناصب والوظائف ، فظهر أن طلب الاصلاح كان شبكة لصيد المنافع ، و يحتجون على هذا بأن المؤتمر العربي قد قرر ان لا يقبل احد من المنتمين الى لجان الاصلاح العربية اي منصب في الحكومة العثمانية اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها — الا بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها . وخص باشد الانتقاد السيد الزهراوي وعميدي المسلمين والنصارى في جمعية بيروت الاصلاحية — محمد افندي بيهم ونخله بك سرسق اذ قبلوا ان يكونوا أعضاء في مجلس الاعيان ، قبل تنفيذ الاصلاح في البلاد العربية

ولهؤلاء الثلاثة ثلاثة اجوبة يردون بها تلك المطاعن (احدها) ان الحكومة قد شرعت في تنفيذ الاصلاح ولا يعقل أن لا يقبل العرب طلاب الاصلاح منصبا ولا عملا فيها الا بعد تنفيذ الاصلاح كله بأيدي الترك ومقاومي الاصلاح من العرب ، كأننا نقول : إننا بعد ان يصلح لنا هؤلاء بلادنا نقبل المناصب والوظائف فيها ! (الثاني) ان عضوية الاعيان لا تعد وظيفة او منصبا في الحكومة ، لان عمل الاعيان كعمل المبعوثين (النواب) : وضع القوانين ومراقبة الحكومة في تنفيذها ، فهو سيطرة على الحكومة لا خدمة لها (الثالث) ان اللجان الاصلاحية التي ننتمي اليها قد وافقت علي ان نكون في مجلس الاعيان . وأما الذين قبلوا المناصب في غير مجلس الاعيان فيمكن لمن كان منتميا الى بعض لجان الاصلاح ان يجيب بالجواب الاول . وهو جواب ضعيف اذا لم يعززه الثالث .

سواء على حزب اللامركزية اقتنع المنتقدون والطاعنون بهذه الاجوبة أم لم يقتنعوا ، فان لجنة الحزب العليا لم تدخل في باب المناصب والوظائف ، وقد دعي رئيسه (رفيق بك العظم) الى الاستانة مرارا قبل ذهاب الزهراوي اليها و بعده — وكان ولا يزال مرشحا لمنصب الوزارة — فلم يجب الدعوة ، والسيد الزهراوي — وان حضر تأسيس الحزب — لم يجب ان يدخل في لجنته الادارية ولا في الانتخاب لها ، لانه جاء مصر زائرا لا مقيما . ولكن مكانته العالية من نفوس لجنة الحزب العليا ومن نفوس سائر طلاب الاصلاح في سورية وغيرها هي التي حملت اللجنة

على اختياره للمؤتمر ، ثم ان حسن سلوكه في المؤتمر ، وثباته بعد اتمام عمله فيه على السعي الى الاصلاح مع الارتباط بالحزب وتقيده بقراراته ، وانقطاعه عن كل عمل لأجله ، على كونه ينفق من مال نفسه - وناهيك بسعة النفقات في أوربة - كل ذلك كان من الاسباب الجديدة لرضاء الحزب بقبوله لمنصب عضوية الاعيان والتوسط لدى الحكومة في الاصلاح ، واما السبب الأول فهو كفاءته الشخصية في صدقه واخلاصه وتاريخه الحميد النقي ، كما أشرنا الى ذلك من قبل .

***

بقيت المسألة الرابعة ، وهي بيان حالة الحزب الحاضرة . والقول الوجيز فيها ان الحزب — وان لم يسمع له صوت عال من عدة أشهر — قد أصبح أقوى مما كان ، منذ أسس الى الآن ، فقد كثرت فروعه في الولايات وانتظمت ، وقويت الثقة به وثبتت ، وانحصرت آمال طلاب الاصلاح فيه أو كربت ، ويصح ان يقال ان طوره الأول كان طور تمهيد للعمل بإعداد الافكار ، ثم بتأليف اللجان ، وقد انتهى الآن بطور القيام بالاعمال ، وان قيامه بالعمل ، واضطلاعه بالسعي ، هو خير خدمة للدولة قبل الامة ، لما أثبته الماضي لرجاله من الروية وحسن النية ، فكانت المصلحة في أن يدير هو الحركة ، لئلا تفضي الى الفوضى ، أو يتغلب عليها الغلاة المتطرفون ، الذين ظهرت في مدة سكوته اصواتهم بنغمة الثورة ، وتوزيع منشورات أقلقت الحكومة وعقلاء الامة . ويقال انه يريد ان يبدأ عمله بجمع مؤتمره السنوي وتجديد انتخاب أعضاء اللجنة العليا ، وعرض المشروعات الجديدة للعمل عليها ، ومنها تحويله الى جمعية ، اذا لم تصدق عليه الحكومة . فقد اقترح هذا كثيرون . وعسى ان تكفيه الحكومة هذا الامر ، فتبادر الى الاصلاح من تلقاء نفسها والله الموفق .

الشيخ علي يوسف

٤

﴿ أخلاقه وسجاياه ﴾ المنار لا يعنى بترجمة أحد ترجمة تاريخية محضة وإنما يعنى من تراجم الناس ببيان الاخلاق الحسنة والاعمال النافعة ، التي تكون مثلا حسنا ، وقدوة صالحة ، لأن غاية المنار اصلاحية فهو يعنى بكل ما يتوسل به